التفسير المطول – سورة التوبة ٠٠٩ – الدرس (٦٣-٧٠) : تفسير الآية ١١١، التجارة مع الله تجارة رابحة – الفوز العظيم هو الفوز بالجنة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١١-٠٧-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

الله سبحانه وتعالى منح الإنسان الإيجاد والإمداد والهدى والرشاد :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث والستين من دروس سورة التوبة، ومع الآية الحادية عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

أيها الأخوة الكرام، بين الآيات القرآنية في السورة الواحدة علاقات وشيجة، فبعد أن حدثنا ربنا جل جلاله عن الذين تخلفوا عن الغزو، وعن الذين اعتذروا كاذبين، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم، قال: هذه الأنماط – النماذج– من المنافقين، والكفار، لا تعني أن ليس هناك فئة مؤمنة طاهرة، متفوقة، لذلك جاء الحديث عن المؤمنين، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾

النقطة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى منح الإنسان الإيجاد، ومنحه الإمداد، ومنحه الهدى والرشاد، منحك نعمة الإيجاد، أنت موجود، والدليل: لو اطلعت على كتاب أُلف قبل ولادتك، في أثناء تأليف هذا الكتاب، من أنت؟ لا شيء، ما هويتك؟ لا هوية، ما وجودك؟ لا وجود.

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾

[سورة الإنسان]

إذاً منحنا الله عز وجل النعمة الأولى نعمة الإيجاد، فنحن موجودون، والوجود نعمة كبرى، لأن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا، فلما أوجدنا، معنى ذلك أنه أوجدنا ليسعدنا وهذه نعمة كبيرة.

الله عز وجل منح الإنسان الحياة و اشتراها منه :

لذلك العلماء قالوا: هناك نعم كبرى، أولها: نعمة الإيجاد، وثانيها: نعمة الإمداد، أمدك بكل حاجاتك، المادية، والمعنوية، القريبة، والبعيدة، ومع كل ذلك منحك نعمة الهدى والرشاد، دلك

عليه.

إذاً أي إنسان على وجه الأرض يتمتع بنعم ثلاث، أولاها: نعمة الإيجاد، وثانيها: نعمة الإمداد، وثالثها: نعمة الهدى والرشاد، الله عز وجل أوجدنا، وأمدنا، وهدانا، ولكن هذا التمليك ملكنا أنفسنا، وملكنا أموالنا، المال مال الله، لكن الله ملكنا إياه، وليكون هذا التمليك أكيداً وحقيقاً قال: أقرضني من هذا المال، هو مال الله عز وجل.

كيف بأب يعطي ابنه مبلغاً كبيراً، ثم يقول له: أقرضني يا بني، المال مال الأب لو قال: ردّ لي بعض المال، لم يقل رد لي بعض المال، قال: أقرضني.

معنى ذلك الله سبحانه وتعالى منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الرشاد والهدى، ونعمة الإمداد، لكن الله عز وجل إذا أعطى لا يأخذ، وإذا منح لا يسترد، إذاً ملكك حياتك، وملكك مالك، الآن إذا بذلت حياتك في سبيل الله، إما ضعفاً، أو جهداً، أو طاقة، أو قتلاً في سبيل الله، إن قدمت حياتك في سبيل الله، أو قدمت مالك، هذا العمل ثمّنه الله تثميناً كثيراً، لأنه عدّ حياتك ملكك، وعدّ مالك ملكك، ثم قال: ابذل هذه الحياة، ابذل جهداً، أو وقتاً، أو مشقة، أو نفساً، ابذل هذا المال أو بعضه، أو كله، فكأن الله سبحانه وتعالى منحك ثم استقرضك، فقال تعالى:

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾

[سورة البقرة الآية: ٢٤٥]

إذاً:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى ﴾

أي هو منحك الحياة، واشتراها منك، إذاً هناك صفقة، هناك بائع ومشتر، مبيع ومادة، المشتري هو الله، والبائع هو الإنسان المؤمن، وأما الثمن فهو جنة عرضها السموات والأرض فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطَر على قلب بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

المؤمن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

لذلك المؤمن حينما يشعر أنه باع نفسه لله، كيف يتصرف بعدها؟ أضرب على ذلك مثلاً: لو أن لك بيتاً ملكك، بعته، فالذي اشتراه أراد أن يلغي حائطاً بين غرفتين، هل تستطيع أن تعترض عليه؟ لو أراد أن ينشئ غرفة زائدة، أي إجراء في هذا البيت لأنه تملّكه فأنت كبائع ليس لك الحق أن تعترض عليه، هذا المثل للتقريب.

ما دمت قد بعت نفسك لله بيعاً حقيقياً، وبيعاً قطعياً، فإذا اختار الله لك دخلاً محدوداً، أو زواجاً من دون أولاد، أو ذكوراً من دون إناث، أو إناثاً من دون ذكور، أو دخلاً فلكياً، أو دخلاً محدوداً، أو مرضاً معيناً، أو مشكلة في حياتك، هذا كله من قضاء الله وقدره، فأنت إذا كان بيعك حقيقياً بعت ربك عز وجل، طبعاً هذا لا يتناقض مع أن تعالج نفسك، هذا لا يتناقض مع أن تأخذ بالأسباب،

ولكن حينما تأخذ بالأسباب ولا تستطيع بعد الأخذ بها أن تحقق الهدف، إذاً هذه مشيئة الله، هذه كلمة دقيقة جداً.

المؤمن حينما تأتيه مشكلة يبحث عن حل لها، وحل ثان، وحل ثالث، فإذا لم تفلح كل الحلول، يقول: هناك حكمة بالغة بالغة من هذا الذي أصابني، أما أن تقول هناك حكمة قبل أن تفعل شيئاً فهذا عمل فيه تواكل، وعمل مرفوض في عالم المسلمين.

بالإسلام هناك حقيقة خطيرة جداً: المؤمن الصادق عليه أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

التوكل من أخطر صفات المؤمن :

ما الذي يتناقض مع هذه الحقيقة؟ ألا تأخذ بالأسباب مدعياً أنك توكلت على الله، هذا ليس هو التوكل.

قال سيدنا عمر: "المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله".

الطالب المتوكل يدرس قصارى جهده، ثم يتوكل على الله، والتاجر المتوكل يدرس الصفقة دراسة متقنة مبالغ فيها، ثم يشتريها ويتوكل على الله، الطبيب المؤمن يراجع كل المراجع ثم يصف الدواء وبعدها يتوكل على الله، لأن التواكل أي ألا تسعى وأن تكتفي بالتوكل، هذا عند الفقهاء تواكل وليس توكلاً، لأن هذا التوكل من أخطر صفات المؤمن، لكن المسلمين في تخلفهم عن حقيقة دينهم، فرغوا هذه الصفة من مضمونها الصحيح، فصار ترك الأخذ بالأسباب توكلاً، لا أبداً، خذ الأسباب وكأنها كل شيء، وتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

أيضاً للتقريب: أنت مسافر من بلد إلى بلد، ماذا يعني التوكل؟ أن تراجع المركبة مراجعة دقيقة، أن تراجع المحرك، أن تراجع العجلات، أن تراجع العجل الاحتياط، أن تراجع كل شيء، ثم تقول: يا ربي توكلت عليك، اللهم احفظني، أما أن تكون العجلة الاحتياط غير سليمة وهناك أخطاء كبيرة بالمركبة، وتقول: توكلت على الله فهذا ليس من الدين في شيء، خذ الأسباب وكأنها كل شيء، ثم توكل على الله وكأنها ليست بشيء.

عندنا منزلقان في التوكل، عدم الأخذ بالأسباب يتناقض مع التوكل، والاعتماد عليها يتناقض مع التوكل، تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وتعتمد على الله وكأنها ليست بشيء.

البذل علة وجودنا في الدنيا :

لذلك إن الله عز وجل قال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

ماذا اشترى منهم؟

﴿ أَنْفُسَهُمْ ﴾

من هو الإنسان؟ هو نفسه التي بين جنبيه، جسمه وعاء له، وروحه قوة إمداد إلهية تحركه، فالروح قوة الإمداد الإلهية، والجسم وعاء لنفسه، ونفسه ذاته، ونفسه هي المؤمنة، هي غير المؤمنة، هي الصادقة، هي الكاذبة، هي التي ترقى، هي التي لا ترقى.

إذاً الله عز وجل:

﴿ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾

النفس بطاقتها، بوقتها، بجهدها، ببذلها، بتضحيتها، بالمتاعب التي قد تتحملها، بالهموم التي تنصب عليها، هذا كله من خصائص النفس، وقد يبذل الإنسان نفسه في سبيل الله، فهذه النفس المؤمن باعها لله عز وجل، وهذا هو البيع الرابح.

﴿ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾

كل شيء يملك هو مال، فمالك هو النقد الذي بين يديك، ومالك وقتك، ومالك جاهك، ومالك مكانتك، هذه كلها داخلة لأن هذا لك، تملكه أنت، فهناك من يبذل من ماله، ومن جاهه، ومن وقته، ومن علمه، فلابد من البذل، بل إن علة وجودنا في الدنيا البذل، والدليل أن الذي يأتيه ملك الموت يقول:

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً ﴾

[سورة المؤمنون]

كأن العمل الصالح بعد الإيمان بالله، هو علة وجودك، لأن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، ولأن العمل الصالح ثمن الجنة، من هنا كان المؤمن موفقاً وسعيداً، لأنه عرف سر وجوده.

وللتوضيح: لو إنسان سافر إلى بلد أجنبي لينال الدكتوراه، في هذه العاصمة التي فيها الجامعة، علة وجوده في هذه المدينة الدراسة فقط، هناك نزهة، و زيارة، و سياحة، و ناد ليلي، و سينما، و نشاطات، وحركات، وسكنات لا تعد ولا تحصى، ولكن هذا الطالب الذي جاء لهذه المدينة بقصد الدراسة، نقول: علة وجوده في هذه المدينة نيل هذه الشهادة، فالمؤمن الموفق لا تغيب عنه علة وجوده في الدنيا.

العبادة علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا :

علة وجودك في الدنيا قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

[سورة الذاريات]

العبادة، العبادة هي الطاعة، والعبادة أن تستسلم لمنهج الله عز وجل، والعبادة أن تكون مع الله، أن تطيعه، وأن تتقرب إليه، وأن تسعد بقربه في الدنيا والآخرة، أن تطيعه فيما أمر، وأن تنتهي عما نهى عنه وزجر، وأن تتقرب إليه بالأعمال الصالحة، وأن تتجه إليه محباً ومخلصاً، هذه العبادة،

والإنسان إذا عبد الله شعر بالتوازن، وهناك شيء اسمه في علم النفس متعة الإنجاز، فأنت حينما تعرف سر وجودك، وغاية وجودك، وتتحرك وفق هذا الهدف الذي رسمه الله لك، تشعر بطمأنينة، وراحة نفسية لا يعرفها إلا من ذاقها، أنت حينما تتحرك وفق الهدف الذي خلقت له، أو وفق سر وجودك، ووفق غاية وجودك، تشعر بطمأنينة، وراحة نفسية لا تقدر بثمن، حينما تستيقظ صباحاً كما ورد في بعض الأحاديث النبوية:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

عطاء الله أبدي سرمدي :

إذاً إن الله جلّ جلاله:

﴿ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ﴾

وهبهم أنفسهم، ثم اشتراها منهم، وهبهم أموالهم، ثم قال: أقرضوني بعض هذا المال، أقرضني يا عبدي، هذه المعاني إذا ذاقها المؤمن ذاب محبة لله عز وجل، اشترى، ما الثمن؟ الثمن شيء لا يوصف قال:

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

قد يخطر في بال الإنسان بأن لهم أولاداً نجباء، بأن لهم حياة مديدة بأن لهم صحة فريدة، هذا كله زائل.

أخوتنا الكرام، الدنيا بكل ما فيها، من مباهج، من متع، من مسرات، من أموال، من جاه، من سلطان، لا تتناسب مع كرم الله عز وجل، لماذا؟ لأن كل هذا العطاء في الدنيا ينتهي عند الموت، وعطاء الله ينبغي أن يكون أبدياً سرمدياً، الدنيا مهما تفوقت فيها، بعلمك، أو عملك، أو مكانتك، أو وسامتك، أو صحتك، أو زواجك، أو أولادك، كل ما فيها من مباهج، ومن مسرات، لا تتناسب مع كرم الله عز وجل، لماذا؟ لأن هذه الدنيا تنتهي بالموت، لكن عطاء الله الذي يليق بكرمه ينبغي أن يكون أبدياً.

من سقط من عين الله ضيع مكانته وهيبته :

لذلك أنا أقول: المؤمن العطاء الإلهي له على شكل خط بياني صاعد صعوداً مستمراً، وما الموت إلا نقطة على هذا الخط الصاعد، والصعود بعد الموت مستمر، هذا العطاء أيلغى بشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً؟ في بعض الآثار النبوية:

((ألا يا رب شهوة ساعة، أورثت حزناً طويلاً))

[ورد في الأثر]

شهوة ساعة، زلة قدم، ضيعت مكانتك عند الله، لأن الإنسان إذا عصى الله عز وجل سقط من عينه، لو أن شيئاً سقط من السماء إلى الأرض يتحطم على سطح الأرض، يتكسر، فكيف إذا سقط الإنسان من عين الله عز وجل؟ قد تكون فقيراً وأنت عند الله كبير، وقد تكون ضعيفاً وأنت عند الله كبير، وقد تكون مرهقاً وأنت عند الله كبير، وقد تكون متعباً وأنت عند الله كبير، ولكن إذا سقط الإنسان من عين الله انتهى كل شيء.

((ابن آدم اطلبنِي تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

﴿ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾

إنسان سأل عارفاً بالله، قال له: يا سيدي كم الزكاة؟ فهذا العارف أراد أن يعطيه درساً لطيفاً، قال له: عندنا أم عندكم؟ قال له: عجيب ما عندنا؟ وما عندكم؟ قال له: عندكم اثنان ونصف بالمئة، أما عندنا فالعبد وماله لسيده.

البعد وعدم السير الحقيقي في الطريق إلى الله يسبب أسئلة لا داعي لها :

لذلك الإنسان حينما يؤدي ما عليه من فرائض، هو مؤمن ورب الكعبة، وناج، وفي الجنة، لكن أحياناً هو من السابقين السابقين، من الذين قدموا كل ما يملكون لله عز وجل، هذا المعنى في قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[سورة الأنعام]

هذا أعلى درجات العبادة، أن يكون كل شيء بيديك لوجه الله عز وجل، الثمن الجنة، والجنة مهما تنوعت أوصافها، الله عز وجل اختار للجنة أوصافاً في القرآن محدودة، أنا أتمنى ألا نزيد عليها شيئاً، كل شيء الله عز وجل ذكره في عالم الغيب ممنوع على المؤمنين أن يزيدوا عليه، فأي زيادات من خيال العلماء، هذا ممنوع، نكتفي بالوصف الذي كان في القرآن الكريم، هذا الوصف فيه حكمة بالغة، لكن للتقريب: إنسان يتجه للمدينة، سأل عن مساحتها، عن مبانيها، عن حدائقها، عن جامعتها، وناقش، وحاور، وصدق، وكذب، هذا جهد ضائع، أنت في الطريق إليها وبعد أن تدخلها ترى كل شيء.

فقضية ما في الجنة، ونعيم الجنة، وحور عين، وهل للمرأة حور عين أيضاً أم لا يوجد لها؟ هذه التفاصيل، العجيب أن الصحابة لم يسألوا عنها إطلاقاً، لماذا؟ لأنهم وصلوا إلى الله، والإنسان إذا وصل إلى الله توفرت أسئلته.

كنت أقول مرة: لو إنسان لم يرَ البحر سأل عن لون البحر، عن عمق البحر، عن طعم ماء البحر، عن ملوحة البحر، عن كثافة البحر، هناك مليون سؤال، فإذا رأى البحر ونزل فيه، مياه البحر محيطة به، رائحة الملح يشمها بأنفه، منظر الماء يراه بعينه، انتهت كل أسئلته، أنت إذا وصلت إلى الله انتهى كل شيء.

لذلك قلّما تجد في أصحاب النبي من يطرح عليه أسئلة من النوع الذي يطرح اليوم، فالبعد، وعدم السير الحقيقي في الطريق إلى الله، يسبب هذه الأسئلة.

من يموت في سبيل رفع راية الإسلام عالياً و نشر الحق فهو في سبيل الله :

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

الثمن؟ قال:

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾

الإنسان يموت موتاً طبيعياً، أحياناً يقتل في حرب، لكن هناك حالة واحدة ولها شروط صعبة جداً، أن تموت في سبيل الله، من هذا الذي يموت في سبيل الله؟ الذي قاتل ليكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله، ليعلي دين الله، لينشر هذا الدين، ليجعل هذا الإسلام متبعاً في كل البلاد، حينما يخرج من ذاته لينقل هذا الدين إلى من حوله، ويموت في هذه الحالة الرائعة، فهو في سبيل الله، أي كل إنسان مات هو في سبيل الله؟ هذه فيها تزيد، وفيها مبالغة، وفيها عدم دقة في الكلام، الذي يموت في سبيل رفع راية الإسلام عالياً، الذي يموت في سبيل نشر الحق في الأرض، هذا في سبيل الله، لكن هناك حالات أخرى من الموت عدها النبي شهادة، مثلاً: ورد في بعض الأحاديث:

((مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فهو شهيد))

[أخرجه النسائي عن سويدَ بن مُقَرِّن]

أي مظلوم، طالب بحقه، لم يعطَ حقه، ثم قتل فهو أيضاً شهيد، هناك أهدف عديدة أما أرقى هدف فأن تموت من أجل رفع كلمة الحق.

أنواع الدعوة إلى الله :

١ ــ الدعوة البيانية :

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

طبعاً هذا القتال أخواننا الكرام، يجب أن يوضح لأخوتنا هناك دعوة بيانية، دعوة باللسان:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

[سورة النحل الآية:١٢٥]

دعوة بيانية، مع الدعوة البيانية أحياناً هناك شِدة، أي هناك دعوة بيانية، و دعوة عن طريق التربية، أحياناً الله عز وجل يسوق لك بعض الشدائد، هذه الشدائد هي دعوة إليه، إذا أرسل لك نبياً ومعه كتاب فهذه دعوة بيانية، هذه أرقى دعوة، الدعوة البيانية أكمل موقف فيها الاستجابة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٤]

الله عز وجل يدعوك للحياة،

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

هذه الدعوة البيانية، لو أن الدعوة البيانية لم يكن بعدها استجابة، الله قال:

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ﴾

الدعوة البيانية نص تقرأه، كلمة تسمعها، خطبة تستمع إليها، درس علم تصغي إليه، هذه الدعوة البيانية، كلام وأنت معافى سليم في بيتك، في أهلك، مع أولادك، بدخلك، بدكانك، بتجارتك، وأنت بأعلى درجة من الراحة تأتيك دعوة إلهية، عن طريق خطيب مسجد، عن طريق داعية، عن طريق كتاب، عن طريق رؤيا، عن طريق حادثة، عن طريق ...الخ.

٢ ــ التأديب التربوي :

قال: فإن لم تستجب لهذه الدعوة البيانية، الآن يقول لك الطبيب: هذا المرض الذي تعاني منه يعالج معالجة تامة بالحمية، فإذا أنت رفضت الحمية، يقول لك: إن لم تقبل بالحمية لابد من عمل جراحي.

فهناك دعوة بيانية، فإن رفضتها هناك دعوة تأديبية، الدرس الثاني فيه تأديب، فيه شدة، في نفسك، في مالك، في دخلك، في أولادك، فيمن حولك، فيمن فوقك، فيمن تحتك، هذه شدة، والشدائد دائماً من أجل أن تشدك إلى الله، كل شِدة وراءها شَدة إلى الله، وكل محنة وراءها منحة من الله، فالدعوة البيانية أرقى شيء، والموقف الكامل أن تستجيب، الدعوة التأديبية تحتاج طبعاً إلى أن تتوب إلى الله عز وجل.

٣ ــ الإكرام الاستدراجي :

إن لم تستجب بالدعوة التأديبية لابد من طريقة ثالثة تمتحن بها، وهي الإكرام أنا أسميه إكرام استدراجي.

٤ ــ القصم :

لا بالشدة استجبت، ولا بالإكرام استجبت، ولا بالبيان استجبت، عندئذٍ يأتي القصم:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾

[سورة الأنعام الآية: ٤٤]

يل أيها الأخوة الكرام، نحن في الدنيا ندعى إلى الله، النبي الكريم مرّ على قبر قال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[رواه ابن المبارك عن أبي هريرة]

كل دنياكم، لو تملك أكبر شركة بالعالم، أكبر دخل، أعلى منصب:

((إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

فالبطولة أن تصحو وأنت حي، أنت تصحو والقلب ينبض، أو تصحو وفي العمر بقية.

إذاً:

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق عوده للمؤمنين :

أخواننا الكرام، أنا أقول دائماً: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق عوده للمؤمنين، الله عز وجل إذا وعد وفى، لا يوجد جهة أقوى من الله تمنعه أن يوفي وعده، كل شيء بيده، كن فيكون زل فيزول، الآية الكريمة:

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾

[سورة القصص]

مرة كنت في مجلس يضم أربعين أو خمسين شخصاً، وأنا أحدثهم عن الجنة، وعن أحوال المؤمن، فقال لي أحدهم: أنا لست قانعاً بهذا الكلام، المؤمن شأنه كأي إنسان، ما يصيب الناس يصيبه، من سراء، ومن ضراء، لا يوجد له أي ميزة، هكذا رأيه، قلت له: لو أن إنساناً عنده ثمانية أولاد، ودخله أربعة آلاف ليرة في الشهر، لا تكفيه طعام خمسة أيام، وبيته مستأجر، وعليه دعوى إخلاء، أي مصائب الدنيا كلها انصبت عليه، وله عم غني غنى فاحشاً، يملك مئة مليون، وليس له أولاد، ومات هذا العم في حادث سير، وهذا ابن الأخ الفقير المحتاج هو الوريث الوحيد لهذا الإنسان، هذا الفقير حينما علم أن عمه مات بحادث، وأن الخمسمئة مليون آلت إليه، لكن المالية، وبراءات الذمة، والوثائق، تحتاج إلى روتين طويل في البلد، لا يستطيع قبض قرش واحد قبل عام، لماذا هذا الفقير المدقع المعدم هو أسعد إنسان بهذا العام مع أنه لم يأكل لقمة زائدة ولم يرتدِ معطفاً واحداً؟ قال: دخل في الوعد.

الآن اسمعوا قوله تعالى:

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾

أنا أقول لأخوتنا المشاهدين: هنيئاً لمن أيقن أن الله وعده بالجنة، هذا أعظم عطاء إلهي، هنيئاً لمن أيقن أن الله وعده بالجنة.

أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا :

إذاً:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾

- في كل الكتب السماوية

﴿وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾

هل هناك قوة في الأرض يمكن أن تمنع رب العالمين أن يفي بوعده؟ مالك الملك، الحي القيوم، العباد كلهم في قبضته، كن فيكون، زل فيوزل، لذلك البطولة أن تكون متيقناً من وعد الله لك، وعدك بجنة عرضها السموات والأرض، هذا الوعد بالجنة يمتص كل متاعبك، هذا الوعد بالجنة يخفف كل همومك، هذا الوعد بالجنة ينقلك إلى ما سيكون، لا إلى ما هو كائن.

قال:

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا ﴾

أيها المؤمنون، الإنسان يعيش المستقبل، أكثر الناس يعيشون الماضي والحاضر، يتحدث عن ماضيه، ذهب، وسافر، تزوج، وأنجب أولاداً، وزوج أولاده، وإلى آخره، ويتكلم عن حاضره، وعن ماضيه، لكن قلة قليلة من الناس تفكر إلى المستقبل، والحقيقة أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أكيسكم))

أي أعقلكم، أحزمكم.

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكرا، وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لوقت النشور))

[ابن مردويه والبيهقي عن أبي جعفر المدايني]

الله عز وجل خلقنا لجنة عرضها السموات والأرض، مع الأسف الشديد يعيش الناس ماضيهم وحاضرهم، وقلّما يعيشون مستقبلهم، فالله عز وجل يلفتنا في هذه الآيات إلى ما ينتظر المؤمن من نعيم مقيم.

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾

المؤمن لماذا هو سعيد؟ هو مثل الناس يصيبه ما يصيبهم، يقلقه ما يقلقهم، لكن وعد الله له بالجنة يمتص كل متاعب الدنيا.

معرفة الله و الاستقامة على أمره ثمن الجنة :

الآن النقطة الدقيقة أن الله عز وجل العظيم، قال:

﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

إذا الإله العظيم بنبئك بقرآنه، بكلام واضح كالشمس، قطعي الدلالة، يقول لك: هذا

﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

أما عند الناس، بمقاييس الناس، بدنيا الناس، إنسان اشترى أرضاً تضاعفت مئة مرة فيقول لك: هذا فاز فوزاً عظيماً بالمال فقط، إما بمنصب اعتلاه، أو بمال جمعه، أو بأهل كانوا كما يتمنى، ففي الدنيا مباهج، و مسرات، و إنجازات، ومراكز علية، و ثروة طائلة، وهيمنة، و سيطرة، ومباهج لا تعد ولا تحصى، لكن كل هذه المباهج تنقطع بالموت، إذاً ليست عطاءً حقيقياً.

قال:

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾

لأن الثمن هو الجنة، بأن لهم الجنة الثمن هو الجنة،

﴿ وَذَلِكَ ﴾

العطاء:

﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

إذا قال العظيم فوزاً عظيماً فهو عظيم فعلاً، ولابد من قضية أذكرها كثيراً: طفل صغير عمره أربع أو خمس سنوات عقب عيد الأضحى قال لأخيه: أنا معي مبلغ عظيم، مئتا ليرة، وإذا قال إنسان بدولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، أي مئتي مليار، فإذا كان عظيم العظماء، ملك الملوك، ومالك الملوك:

﴿ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾

[سورة الأحزاب]

فالحقيقة أن تعرف الله، أن تستقيم على أمره، أن تتقرب إليه، أن تمضي إليه، أن تمضي حياتك بالعمل الصالح، فالعمل الصالح هو النجاح، هو الفلاح، هو الفوز، هو التفوق، هو السعادة، طرق السعادة بين أيدي الناس، أن تعرف الله، وأن تتبع منهجه، أن تعرف الله، وأن تتصل به، أن تعرف الله، وأن تتقرب إليه هذا:

﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

فلذلك:

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

والحمد لله رب العالمين